# قصة دائرة المعارف الاسلامية

## للأستاذ صلاح الدين المنجد

الأنسيكلوبيدية الفرنسية ، معجم شامل للمعارف الإنسانية ؛ أخرجته طائفة من علماء القرن الثامن عشر وفلاسفته وضمّنوه ثمرة دراساتهم الطوال ، فبدت فيه روح العصر وعاداته ، وطرائق أهله فى المساجلات والمهاترات

لم ينشأ عن دائرة المعارف هذه ، بعث أدبى أو علمى ، فقد كانت نتيجة لعوامل شتى ، لا سبباً لها ، وكانت ملتقى تيارات تتعارض ونظريات تتضارب ، ويلاحظ الأستاذ ( أوبيرتان Aubertin ) فى كتابه : « روح القرن الثامن عشر » أن هذه التيارات تنحصر فى الأمور التالية

١ — الانطلاق : وكان مدلوله فى القرن السابع عشر استقلال الفكر ، وشنشنة ضد الدين . وكان معناه فى القرن الثامن عشر تظاهراً بالدعة مع الجحود والكفران

٢ — الروح العلمى . فقد هيمنت روح العلم على نفر كبير من الناس ، فأضحوا يتعلقون بالحادثات الواقعة . نابذين وراء ظهورهم ما وراء الطبيعة ، ثائرين على السلطان . وكانوا يفتخرون بالتقدم العلمى الذى رأوه آنذاك ، ويعتقدون أن الوقت قد حان لوضع أسس جدُد ، ومناهج واضحة ، تسلكها الأجيال القادمة .

٣ — الرغبة فى الاستقلال السياسى ، فقد مال الناس إلى احتقار سلطان الملكية ، والثورة عليه ، والسعى فى تحطيمه ، لينتوى سلطان الشعب

٤ — الميل إلى تقليد الأجنبى وخاصة إلى تقليد انجلترة ؛ فقد كان الفرنسيون يرون فى كل ناحية من نواحى السياسة والعلم والدين والأدب فيها مثلاً سامياً جديراً بأن يقتفى أثره ، وأن يقلد

فهذه الميول المختلفات . كانت مظاهر عالم جديد يريد أن يحيا . وكانت هذه البيئة تحس فى نفسها قوة وجلداً ؛ وترى أنها قادرة على تحطيم ما خلّفه لها الآباء والأجداد ، ولابد للناس أن يعلموا ما خلفته الأجيال الخالية ، وما بذلته من جهود فى سبيل رقى الإنسانية ، ولا بد لهم أن يدركوا كيف بدأ أجدادهم وإلى أية نقطة من طريق الإنسانية الطويل قد بلغوا . فدائرة المعارف كانت وسيلة إلى ذلك

* * *

ظهرت دائرة المعارف سنة ١٧٤٥ . فقد أذن لصاحب مكتبة Le Bretorn آنئذ ، أن ينقل إلى الفرنسية دائرة معارف العلوم والفنون L'Encyclopedie Des Sciences et des Arts التى ألفها الإنجليزى Chambers فاستشار ، ذاك الكتبى عددا من العلماء . وكانت هذه الاستشارات لا تجدى شيئاً . فعهد عندئذ إلى « ديدرو Diderot » بهذا العمل ، وكان ذا فكر ثاقب محيط . فرأى أنه يستطيع توجيه ذاك الكتبى نحو فكرة قد تكون أكثر جدوى ، وأقرب نفعاً ؛ فلماذا ينقل إلى الفرنسية معجم ذلك الإنجليزى ؟ أليس من الخير لبلاده أن يكتب المعارف الإنسانية بفكر فلسفى ويقدمها للناس ؟ لا جرم أن ذلك يساعد على انتشار آرائه ، وتبيان ما يذهب هو والفلاسفة إليه ، ويكون وسيلة لجمع شتات فلاسفة عصره . وزين ديدرو للكتبى فكرته فقبل . وعندئذ اتصل بدالامبير D'Alembert وانكفا على وضع نهج العمل

على أن نهج العمل واضح لا يحتاج إلى جهد وتفكير ، إنما الذى يدعو إلى التفكير هو الحصول على المال . فالمعجم سيكون كبيراً ، وهو يحتاج إلى نفقات قد تثقل عاتق الناشر . وعمدوا إلى اكتتاب بالاشتراك . وساعد على ذلك محافل الماسونيين فى العالم كله ، واهتمت السلطات العامة بهذا الأمر . وتدفقت الأموال على الناشر وصاحبيه . وابتدأوا يعملون

وفى سنة ١٧٥٠ أخرج ديدرو المجلد الأول ، وفيه المنهج الذى سيكون المعجم عليه ، وتبيان ماسيتضمنه ويحويه . ومقاله لدالامبير سماها : Discours Prèliminaire

ولم يكد يظهر المجلد الأول حتى تهافت الناس على شرائه ؛ ونال رواجاً كبيراً ، وأبدى كثير من الكتاب والعلماء رغبتهم فى مساعدة ديدرو ودالامبير

وظهر المجلد الثانى ؛ وفيه طعن ديدرو على القديم طعناً موجعاً ، وثار الناس على مقالة كتبها الأب دُبراد محرر دائرة المعارف فى الإلهيات . وهب رجال الدين يطعنون على هذا المعجم الذى يسوق إلى الإلحاد ويدفع إلى الكفر ، واضطربت السلطة ، واضطرت إلى مصادرة الجزأين . وكاد ديدرو أن يُسجن فى الباستيل ، ولكن الناشر ما زال يسعى حتى أذن له مرة ثانية بإخراجها

وما كادت سنة ١٧٥٧ تطلع على الناس حتى حدث ما لم يكن بالحسبان . فقد أثرت الأحداث السياسية فى فرنسة فكانت مؤامرة داميان Damiens ، الذى طعن لويس الخامس عشر بطعنة موسى ، وكان فشل روسباخ Rosbach مما سبب يقظة الشعور الوطنى والأخلاق . ودعا إلى شن هجوم شديد على أولئك الفلاسفة المخرّبين الهدّامين . ومما ساعد على ذلك مقالة عن « جنيف » كتبها دالامبير ، وكتاب « الفكر Esprit » الذى كتبه « هيلفيتيوس Hélvétius » فازداد الطعن على دُرّاة المعارف ورجالها ، حتى اضطر الملك إلى إيقافها ، ولكن الناشر استطاع بعون من مدام دبومبادور حظية الملك أن يصدرها . فصدرت وحتمها رجال الشرطة . وظلت تصدر حتى عام ١٧٧٢ إذ انفض عن ديدرو ، دالامبير وروسو ، وبقى وحده .

* * *

كانت دائرة المعارف كما ذكرت معجماً رُتب على الحروف الهجائية ، وكان يبحث فى الرياضيات والطبيعيات والإلهيات . وكان مراسلوها يذكرون ما وصلت إليه الإنسانية فى كل علم أو فن . ويلاحظ دوكرو Ducros فى كتابه « رجال دائرة المعارف » Les Encyclopedistes أن ديدرو تنبأ بمستقبل الفنون الميكانيكية ، فكتب مقالات كثيرة عن كل صناعة وبين خططها وصورها

ولكن على رغم ذلك فإن دائرة المعارف ظلت خليطاً من أمور غامضة تارة ومضطربة أخرى . لا جرم أنه كان فيها الجيد ، ولكن كان إلى جانبه الرديء الرديء . وسر ذلك أن مباحثها كتبت بسرعة دون تأمل أو روية

على أن الذى يدهشنى حقاً فيها تلك الروح المهيمنة عليها فى كل صفحة من صفحاتها ، بل فى كل سطر من سطورها . فلقد استطاع ديدرو ، بل وُفق إلى انتقاء مراسليه من الفلاسفة الذين كان بينهم وبينه نسب فى الفكر والمذهب . فإذا تصفحت دائرة المعارف بدا لك هذا الفكر الفلسفى الذى لا يؤمن بكل أمر خفى ، ويسخر من كل أمر مطلق أو خارق ، ولا يعتقد بما وراء الطبيعة ، ويدعو إلى حرية الفكر والكلام والعمل

وما كانوا يصرحون بذلك تصريحاً تاماً ، ولكنهم كانوا يدسون السم فى الدسم ، ويحشون مقالاتهم أفكاراً تسوق إلى ما يريدون . وقد كان من أشد ما يدعون إليه أن يحاربوا المذاهب والآراء التقليدية الموروثة ، وأن يسخروا منها فيصيبها التهديم

ومهما كان من أمرها ، فلقد كانت وسيلة لاجتماع رجال كبار . فقد كتب فيها : مونتسكيو ورسو وڤولتير ، وكتب ديدرو ودالامبير ودُجوكور وديبنتون Daubenton ومارمونتيل وغيرهم . . .

ويلاحظ روستان فى كتابه ( الفلاسفة والهيئة الاجتماعية فى القرن الثامن عشر )

Roustan, Les philosophes et la Société au XVIII. Siecle

أن مراسلى دائرة المعارف كانوا أشد حماسة من القائمين عليها . ترى ذلك عندما تقرأ مقالات كوندياك تلميذ لوك ، وهافيتيوس الذى دعا إلى المادية أجرأ دعوة ، وغيرها

وما زالت دائرة المعارف تتستر ، حتى ظهر جلياً ما تدعو إليه . وعندئذ تركها روسو ، وراح يطعن عليها ويتهمها بأنها آلة تهديم ، ويعتذر لنفسه بأنها كتب فيها عن الموسيقى ، وقد خفى عليه ما يريدون

ولكن طعن روسو ، ومن قبله طعن رجال الدين لم يفيدا شيئاً ، فقد انتشرت انتشاراً سريعاً ، فقرأها البرجوازيون المثقفون ، وقرأها بعض السكهنة ، وأعجب بها العامون . ولئن انفض عنها رجالها ، ثم توقفت ، فلقد غرست فى العقول الشك ، وساقت الناس إلى حدث اجتماعى عظيم هو الثورة الفرنسية .

( دمشق ) صدوح الدين المنجد